قواعد نقد الخبر في الكتاب والسنة

فايز عبدالفتاح أبو عمير*

تمهيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد؛ فقد شاء الله تعالى أن يختم النبوات بنبينا محمد ﷺ، وشاء سبحانه أن يكون هذا الدين هو الخاتم، وارتضاه سبحانه لعباده ولم يقبل منهم غيره بعد، وشاء الله تعالى لهذا الدين الاستمرارية والبقاء إلى أن يرث الأرض ومن عليها، وما كان لهذا البقاء والاستمرار أن يحدث لولا أن الله أوجد في هذا الدين الضمانات والضوابط الذاتية التي تكفل هذا الحفظ والاستمرار، فمنذ أن انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وجد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم لزاما عليهم القيام بواجبهم نحو هذا الميراث العظيم بالصيانة والرعاية وعدم المساس به كنصوص يجب أن تصان وتحفظ، من هنا قام الصحابة بمجهود عظيم في حفظ القرآن الكريم من الضياع مع حفظته من الشهداء، ولو فهم الصحابة أن حفظ الذكر لا دخل لهم فيه لما قاموا بهذا العمل الجليل، ومن أين أتى أبو بكر وعمر وعلي... رضي الله عنهم أجمعين بطلب الإشهاد على راوي الحديث، وكيف حق لعمر وعائشة وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين الوقوف ملياً أمام روايات وصلت إليهم فكانت لهم الجرأة البالغة في رد ما نسب إلى رسول الله ﷺ مخطئين الناقل لا معترضين على رسول الله ﷺ، معاذ الله! فما كان لأحدهم أن ينطق برد كلمة واحدة يظن أنها واردة عن رسول الله ﷺ، إنما يتحول النظر إلى الناقل وما نقل لا المنقول عنه، وما كان لهم أن يردوا هذه الروايات

* أستاذ الحديث المشارك في كلية الشريعة بجامعة جرش الخاصة في الأردن.

جزافاً من عند أنفسهم من غير دليل أو قواعد أوصلت إلى إطلاق تلك المقولات وعدم الاعتراف أصلا بهذا الوارد عن رسول الله ﷺ.

إن القرآن والسنة قد دفعا الصحابة للقيام بواجبهم نحو دينهم وهذا الدفع جاء ضمن إطار ممنهج ومنظومة متكاملة تعمل كل أجزائها للقيام بعملية الحفظ والصيانة ومنع الدخيل من الوصول إلى الأصول، هذه المنظومة التي أنزلت من عند الله قرآنا وطبقت قولا وعملا من قبل رسول الله ﷺ والأمة آنذاك، كان لابد من وجود –أو قيام– منهج يحافظ على هذه المنظومة أمام الطوارئ التي عصفت بالأمة وأرادت النيل من أسس وقواعد وجودها كأمة، فكان لابد من النظر في الجذور والأسس تلك مرة بعد أخرى لاستلهام المنهج، وبيان الطريق التي ستؤدي للحفاظ على كيان الأمة كلها.

ولاشك أن قيام الصحابة ومن تبعهم بالأعمال اللازمة للحفاظ على تلك المنظومة هو أمر طبيعي اقتضاه أمران؛ الأول:إن هذه منهجية تعلمها الصحابة رضوان الله تعالى عليهم من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، الثاني: إن الظروف الطارئة التي ألمت بالأمة اقتضت حلولا جذرية للحيلولة دون وقوع ما لا تحمد عقباه، ورغم الجهود المضنية والجبارة التي بذلت وقع مع ذلك بعض الهنات التي كان لابد من تداركها، فكان أن قامت علوم النقد تقلب وتفتش عن أي خلل وإن كان مفترضا للحفاظ على هذا الميراث العظيم، وفي هذه الورقة بيان لأهم قواعد نقد الأخبار الواردة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وبيان الأسس التي قام عليها ذلك المنهج، وقد جاء البحث في ثلاثة مطالب هي معنى النقد في اللغة والاصطلاح، وأسباب النقد، وقواعد النقد في الكتاب والسنة.

لاشك أن كثيراً من الباحثين في الدراسات الإسلامية في هذا الزمان يستشعرون إشكالية كبيرة أمام طرحين متضادين؛ الأول: جاء نتيجة لتراكمات قد خلت من قبل لم يستطع الكثير الخروج من أسر التقليد أو الولوج إلى أبواب جديدة تفتح آفاقا جديدة للوصول إلى إبداع من سبق على الأقل، وأما الطرح الثاني: فجاء نتيجة لضغوطات الحضارة الغربية وما أبدعت فيه في مجالات عدة، وهذا أدى بالبعض إلى

الانعتاق من أصول الماضي وموروثاته، ووصل الأمر إلى أن أعطى "العقل الحديث" لنفسه الحق المطلق —حتى يكون عقلاً حداثياً متحضراً– أن يمحو من الإسلام ما شاء ويثبت، وحتى يتوافق مع ما هو متداول في عالم الفكر والمعرفة، وإذا كان في كلا الطرحين إفراط وتفريط فإن هناك ثلة تشعر بالحاجة الماسة إلى شيء جديد لا لذات التجديد فحسب بل لحاجة النهوض والاستمرار للأمة ككل، يقول العلامة البوطي: "أما الفضل الذي أحرزوه –أي الصحابة– بموجب الشهادة التي شهد لهم بها رسول الله ﷺ، فليس نابعا عن ذواتهم ولا عن بشرية خاصة بهم، وإنما منبعه صفاء سريرتهم وقربهم من مصادر الشريعة وينابيعها، وهي المزية التي يسرت لهم سبيل التخلص من هذه المشكلة التي حاقت بهم، إذ سرعان ما عكفوا على استخراج قوانين وقواعد تكون بمثابة موازين يخضع لها الباحثون والعلماء جميعا في مجال استخراج الدلالات من النصوص، والوقاية من الانزلاق في الأوهام والمتاهات، وليست قيمة هذه القوانين آتية من جهة الذين اكتشفوها وأخذوا بها هم السلف، ولكن قيمتها في كونها محل اتفاق عند العرب أولي السليقة العربية الصافية.."[1]، من هنا كان لابد من الرجوع إلى الأصول دراسة وتمحيصاً واستلهام المنهج لعل في ذلك دواءا لما نحن فيه.

لا يختلف اثنان أن نقد المتن كان سابق الظهور في عهد الراشدين، وما نقل عن عمر وعائشة وغيرهما رضي الله تعالى عنهم أجمعين يؤكد هذه الحقيقة، ولا شك أن ذلك النقد كان قائما على أسس وقواعد وكان الهدف منها صيانة حديث رسول الله ﷺ، وما وقع بين فقهاء الصحابة ومن تبعهم إلى يومنا هذا ما هو إلا من هذا الباب وإن أخذ أشكالا مختلفة، وعندما دون علم المصطلح كان نقد المتن ضمن هذه العلوم، فمختلف الحديث وعلم العلل بأنواعه تمثل أهم المرجعيات للنقد.

ونجد ابن الجوزي رحمه الله تعالى قد تعرض لذكر قواعد نقد الحديث لكن على شكل مبعثر من خلال نقده الموجه للمرويات التي طعن فيها في كتابه القيم

[1] البوطي، محمد سعيد رمضان. **السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي**، بيروت: دار الفكر المعاصر، 1990م، ط2، ص56.

"الموضوعات"، أما علماء الأصول فكان لهم الدور الأميز في حصر هذه القواعد وضبطها وتحريرها كعلم خاص من علوم الأصول التي يلجأ إليها في حال تعارض الأدلة، كما أن هناك إشارات لا بأس بها في كتب التفسير والشروح الحديثية يمكن أن تشكل بمجموعها ذخيرة وافرة في هذا الباب، كما أن العصر الحاضر شهد عدة كتابات حول المسألة إلا أنها لم تحمل في ثناياها التأصيل للموضوع من خلال الكتاب والسنة وبيان المنهج الذي جاءا به للوقوف على حقيقته، وقد حاولت هذه الدراسة التأصيل لقواعد النقد من خلال الرجوع المباشر للكتاب والسنة واستخلاص أمثلة متنوعة.

أولاً: معنى النقد في اللغة والاصطلاح

قال ابن فارس: "النون والقاف والدال أصلٌ صحيح يدلُّ على إبراز شيء وبُروزه، من ذلك النَّقد في الحافر، وهو تقشُّرُهُ، والنَّقد في الضِّرس تكسُّره، وذلك بتكشف ليطه عنه، ومن الباب نَقْد الدِّرهم، وذلك أن يُكْشَف عن حاله في جَودته أو غير ذلك، ودرهم نَقْدٌ وازِنٌ جيد، كأنه قد كُشِف عن حاله فعُلم."[2]

وقال ابن منظور: " ونَقَدَ الطائرُ الحَبَّ ينقُدهُ إذا كان يلْقُطُه واحداً واحداً، وما زال فلان يَنْقُدُ بصَرَه إلى الشيء إذا لم يزل ينظر إليه، وأَنْقَدَ الشجرُ: أَوْرَقَ".[3]

من خلال ما سبق يتبين لنا أن للنقد عدة معان أبرزها إظهار الشيء وإبرازه، والتمهل والنظر مرة بعد أخرى، والاستمرار في متابعة الشيء، وإصابة الهدف. وهذه المعان الأربع –ويمكن أن يكون غيرها– نرى مدى الصلة الوثيقة بينها وبين ما يفهم من القيام بالعمليات الإجرائية لنقد الخبر ليكون النقد صحيحاً لا مجازفة فيه.

فإن النقد بلا شك سيؤدي إلى إظهار وإبراز ما وقع في الخبر من خلل أو ينفي عدم وقوعه،كما أن هذا الأمر بحاجة إلى تمهل وتؤده فإن المتسرع لا يمكن أن يصدرا

---

[2] ابن فارس، أبو الحسين أحمد. **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت: دار الفكر، (467/5).

[3] ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، (426/3).

نقداً أو حكماً صحيحاً في الغالب، ولا يمكن أن يحدث هذا إلا من خلال الاستمرار في النظر فيما يراد نقده، وعدم التوقف عن المحاولات الحثيثة للوصول إلى الغاية المنشودة من إصابة الهدف والوقوف على حقيقة الأمر بأن ما يراد نقده هل هو بالفعل يمكن أن تصح نسبته إلى رسول الله ﷺ أم لا؟!

نرى أن المعاني اللغوية آنفة الذكر متحققة في المعنى الاصطلاحي والذي لم يوضح كثيراً في دراسات السابقين، وقد جاء تحت مسميات قديمة وحديثة مثل؛ مختلف الحديث، والتعليل، وعلم الدراية، وإن كان هناك فارق بينها في التعريفات اللغوية والاصطلاحية إلا أنها تتفق في نتيجتها المبتغاة وهي الوقوف على أحوال المتون المنسوبة إلى رسول الله ﷺ، وهل تصح نسبتها إليه أم لا؟

لقد ظهرت بوادر النقد الموجه للحديث المنسوب إلى رسول الله ﷺ منذ عهد الصحابة، وكان هذا النقد قائماً على مجموعة من الأسس والقواعد الممنهجة وإن لم تأخذ مسميات، كما في باقي العلوم الشرعية الأخرى المرتبطة بهذا الدين مثل علو م القرآن وأصول الفقه...، ثم ظهرت علوم الحديث كقواعد ومسميات لكنها لم تكتمل و لم تحرر كلها وبعضها كان موضع جدال ونقاش، إلى أن اكتملت قواعد هذا العلم وأضحت معلومة مشهورة، وكثرت الكتابات فيها تحت مسمى علوم الحديث أو علم المصطلح.

ثم ظهر التفريق بين علوم الرواية والدراية، مع العلم أن علوم المصطلح تتضمن هذين العِلْمين، وأول من وجدته قد نبه إلى التفريق بين مصطلحي الرواية والدراية الإمام الرامهرمزي،[4] وهو من علماء القرن الرابع الهجري، إلا أنه يبدو أن القرن الثامن الهجري شهد بيان حد مصطلح الدراية، والتفريق بينه وبين الرواية، وكان هذا الظهور على يدي ابن الأكفاني، حينما قال: "علم دراية الحديث علم يتعرف منه أنواع الرواية

[4] الرامهرمزي، الحسن بن عبد الرحمن، **المحدث الفاصل بين الراوي والواعي**، تحقيق د.محمد عجاج الخطيب، بيروت: دار الفكر، 1984، ط3، ص312، وقد ذكر رحمه الله تعالى طرفا من الانتقادات التي وجهها علماء الحديث إلى عدد من المرويات المنسوبة إلى النبيﷺ مبينا أنها لا تثبت أمام النقد، وبين أن لدى علماء الحديث مقدرة فائقة على نقد الحديث وبيان ما فيه من علل بمجرد النظر في متن الحديث.

وأحكامها، وشروط الرواة، وأصناف المرويات، واستخراج معانيها، ويحتاج إلى ما يحتاج إليه علم التفسير من اللغة والنحو والتصريف والمعاني والبديع والأصول، والكتب المنسوبة إلى هذا العلم كالتقريب، والتيسير للنووي، وأصله ككتاب علوم الحديث لابن الصلاح، وأصله ككتاب المعرفة للحاكم، وكتاب الكفاية للخطيب أبي بكر بن ثابت إنما هي مداخل ليست بكتب كافية في هذا العلم."[5]

ثم صار الأمر إلى إطلاق علوم الدراية على علوم الحديث، يقول الصنعاني في مقدمة كتابه توضيح الأفكار وهو كتاب مؤلف في علوم الحديث: "وهو علم دراية لا رواية."[6]

وقال الشيخ تقي الدين: "أما الخاص بالدراية فيعرف عنه حقيقة الرواية وشروطها وأنواعها وأحكامها وحال الرواة وشروطهم وأصناف المرويات وما يتعلق بهم، وتشمل الدراية معرفة المعنى الذي تضمنه الحديث من حيث مناقضته للنص القطعي."[7]

والحق أن الدراية تشمل ضبط الحديث والحيلولة دون وقوع الأخطاء، والوقوف على النص المنسوب إلى النبي ﷺ بالبيان مخالفة أو موافقة للأدلة النقلية التي هي أقوى منه حالاً، وللأدلة العقلية، والقواعد العامة المعلومة من ديننا بالضرورة.

وقد ظهر في عصرنا الحديث ما يسمى بالنقد الداخلي للتعبير به عن نقد المتن، وهذا النقد كان معلوماً ومعمولاً به منذ عهد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، ومع ذلك لا نجد عند علمائنا المتقدمين إفراداً لمصطلح "نقد المتن"، وإن كان ممارساً من

---

[5] الدمشقي، طاهر، **توجيه النظر إلى أصول أهل الأثر**، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، حلب: مكتبة المطبوعات الإسلامية، 1995م، ص 87، نقلا عن كتاب ابن الأكفاني **إرشاد القاصد إلى أسنى المطالب**. وانظر:
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، **تدريب الراوي شرح تقريب النواوي**، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، بيروت: دار الكتب العلمية، 1979م، ط2، (40/1).

[6] الصنعاني، محمد بن إسماعيل، **توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المدينة المنورة: المكتبة السلفية، 1947م، (6/1).

[7] النبهاني، تقي الدين، **الشخصية الإسلامية**، 1991م، ط3، (285/1).

قبلهم متخذاً أشكالاً متعددة وأنواع مختلفة يمكن أن يكون أبرزها علم العلل الذي يعرف عندهم بأنه "خبر ظاهره السلامة أطلع فيه بعد التفتيش على قادح".[8]

وإن كان التعريف يشمل نقد المتن ونقد السند ونقدهما معاً فإنه يعبر عن حقيقة أن النقد الذي يتحدث فيه في عصرنا كان جزء أصيلاً وركناً ركيناً في الحكم على الحديث وقبوله ورده، وقد اتفق علماء هذا الشأن على أن العلة ميدانها الحديث الظاهر عليه علامات الصحة فقط، أما الحديث الضعيف فلا يعلل، من هنا كانت عملية النظر في النص مرة بعد أخرى تؤدي إلى إطلاق حكم ما؛ إما بالقبول أو بالرد، ويتم ذلك من خلال النظر الثاقب في سند الحديث ومتنه على حد سواء، وإن كان الواضح أن الأحكام المطلقة على الأسانيد قد أخذت مساحة أوسع، إلا أنه لا يماري أحد في أن نقد المتن كان معتبرا عند علمائنا سواء حصل له التفعيل أم لا، وسواء توسع فيه البعض أم ضيق، وسواء أقدم البعض وأحجم آخرون.

وفي عصرنا الحاضر اقتضت الضرورة أن يتوجه إلى الدراسات النقدية بشكل عام ونقد الحديث بشكل خاص، خصوصا في ظل الإشكاليات المطروحة التي قُصد ببعضها الحق، والبعض الآخر باطل لا مراء فيه، وقد عرف الأعظمي في مقدمته النفيسة على كتاب التمييز للإمام مسلم "بأنه تمييز الأحاديث الصحيحة من الضعيفة والحكم على الرواة توثيقاً وتجريحاً".[9]

وهذا تعريف عام يتوجه لنقد الخبر من حيث السند والمتن، ومن حيث بيان العلل فيه، والحديث عن أحوال الرواة...، وكأنه تعريف للعلوم المتعلقة بالحديث برمته، ونقد الخبر من حيث متنه هو جزء من التعريف لكن المساحة المعطاة له لا تكاد تكون منظورة.

وأنا أميل إلى الرأي الذي يجعل نقد المتن جزء من علم العلل، ولا بأس بأن يفرد له تعريف خاص من خلال علم العلل بأن يقال: خبر ظاهره السلامة أطلع على متنه بعد التفتيش والعرض على القواعد الضابطة للمتن على قادح.

---

[8] انظر ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن، **علوم الحديث**، تحقيق نور الدين عتر، بيروت: المكتبة العلمية، 1981م، ص81

[9] الأعظمي، محمد مصطفى. **مقدمة كتاب التمييز**، الرياض: مطبوعات جامعة الرياض، 1395هـ، ص8

فقولنا خبر ظاهره السلامة يخرج الأحاديث التي ضعفت لأي سبب كان سواء فقد شرط الاتصال أو قدح في العدالة أو الضبط...، فيكون النقد متوجها إلى الأحاديث التي حكم على متونها بالصحة ابتداء.

وقولنا أطلع على متنه يخرج الحديث عن الأسانيد وأحوال الرواة وإن كانت لا تفصل عن جسم الحديث إلا أن النظر يكون هنا منصب على المتن وبيان ما فيه من وجوه المعارضة للقبول.

وقولنا بعد التفتيش والعرض على القواعد الضابطة للمتن يدلل على أهمية إدامة النظر في المتن وتكرار المحاولات دون كلل أو ملل للوقوف على حقيقة الأمر، وعدم التسرع في الرد والنقد دون الرجوع إلى تأويلات العلماء وما قيل حول هذا المتن، ودراسة تلك الأقوال بعناية وتؤده.

وقولنا والعرض على القواعد الضابطة للمتن هذا يقتضي أن تكون هناك قواعد للنقد –وهذا موجود بالفعل– وهذه القواعد وإن كانت اجتهادية شأنها شأن التصحيح والتضعيف إلا أنه ينبغي أن تكون منضبطة ومقعدة تصلح لأن تكون أرضية مشتركة بين العلماء في حال حدوث خلاف في النقد.

وقولنا على قادح أي أن المتن الذي يعرض على هذه القواعد ولا ينجح في الاختبار يكون في نتيجته النهائية مردودا، ويكون معللاً بعلة نقد المتن.

كما لا يغيب عن بالنا أن علم مختلف الحديث عالج هذه المسألة، والذي يعرف بـــأنه "ما تعارض ظاهره مع القواعد فأوهم معنى باطلاً، أو تعارض مع نص شرعي آخر"[10]، فالحديث المحكم قد سلم من المخالفة مع أي نص آخر سواء كان قرآناً أو حديثاً أقوى منه، أو مع القواعد العامة لهذا الدين، فهذه أسباب موجبة للنقد والوقوف ملياً أمام النص لقبوله أو رده، والحق أن معظم الكتابات في مختلف الحديث كانت تنهج منهج التوفيق –لأن إعمال الأدلة أولى من رد بعضها– وإن كان متكلفا في بعض

[10] عتر، نور الدين: **منهج النقد في علوم الحديث**، دمشق، دار الفكر، 1981م، ط3، ص337.

الأحيان، والذي يظهر من التعريف أن التعارض هو ظاهري فقط ولو غاص الناقد في بواطن الأمور لاكتشف أن التعارض ظاهري لا حقيقي، وإذا كان كذلك فإن مختلف الحديث لا علاقة له بنقد المتن، أما إن كان دور مختلف الحديث في حل الإشكالية برمتها بالتوفيق أو الترجيح –هذا هو الحق– فإن مختلف الحديث يبرز دوره الواضح في مسألة نقد المتون.

ثانياً: أسباب النقد

وهنا يطرح سؤال لماذا النقد؟ وما هي الأسباب الموجبة لقيامه؟ في هذا المطلب سنعرض للأسباب الموجبة لقيام النقد، ووضعها في إطارها النقدي والبحثي الذي كان هم العلماء من الصحابة ومن تبعهم، فإن النص الإلهي لا يمكن أن يقع فيه أي اختلاف أو تناقض فهو صفة قائله، قال عزّ وجلّ: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ (النساء: 82)، وكذا ما قاله رسول الله ﷺ فمحال أن يقع فيه تناقض أو تضارب، وأما البشر الذين ينقلون الأخبار فإنه يقع منهم الاختلاف والتناقض والتعارض لأسباب عديدة بطبيعتهم التي خلقهم الله تعالى عليها، ويمكن إجمال هذه الأسباب بسوء الطوية والنية، والوهم والخطأ، والنسيان، والاختلاف في الفهم، والقراءة الجزئية، وهذا بيان موجز لهذه الأسباب.

1– سوء الطوية

ظهر النفاق والمنافقون في عصر النبوة، ونزلت الآيات تلو الآيات تفضحهم وتكشف نواياهم ومقاصدهم وسوء أفعالهم، فخنسوا وتضاءلوا أمام الصخرة الشماء، لكن بعد أن انقطع الوحي أطلوا برؤوسهم الخبيثة، فأرادوا أن يعبثوا بدين الله، وأن يغيروا مساره كما فعل الذين من قبلهم، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَـذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: 26)، إذن المقصد لهؤلاء القوم ومن هم على شاكلتهم الطعن والدس كلما سنحت لهم الفرصة، لكن هيهات؛ فقد قام علماء

الصحابة ومن تبعهم، بوضع الأمر في ميزانه منذ البداية، مفوتين الفرصة على كل من تسول له نفسه في أن يدخل إلى الدين ما ليس منه، فعن طاووس قال جاء هذا إلى ابن عباس -يعني بشير بن كعب- فجعل يحدثه. فقال له ابن عباس: عد لحديث كذا وكذا. فعاد له، ثم حدثه، فقال له: عد لحديث كذا وكذا. فعاد له، فقال له: ما أدري أعرفت حديثي كله وأنكرت هذا، أم أنكرت حديثي كله وعرفت هذا، فقال له ابن عباس: إنا كنا نحدث عن رسول الله ﷺ إذ لم يكن يكذب عليه فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه". وفي رواية أخرى؛ فقال ابن عباس: إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول قال رسول الله ﷺ ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف".[11]

ونجد أن مسألة الكذب على رسول الله ﷺ لا نقاش فيها -ابتداء- من قبل الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ومن تبعهم إلى يومنا هذا، عن سويد بن غَفَلَةَ قال: قال علي رضي الله عنه: "إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأن أخر من السماء أحب إلي من أن أكذب عليه، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة"[12]، ولذلك نجد الحرص الشديد من قبلهم على حديث رسول الله ﷺ، والتأكد منه ومن قائله، وهذا واضح جلي معلوم لدى طلبة العلم.

لكن في المقابل لم يجوز أحد لنفسه أن يتهم أحداً من غير بينة أو دليل، والأمر لا يعد كونه الأخذ بالظاهر وترك الباطن إلى الله عزّ وجلّ، فعن عبد الله بن عتبة قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "إن أناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ، وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من

---

[11] النيسابوري، مسلم بن الحجاج: **الجامع الصحيح**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر، 1983م، المقدمة (13/1).

[12] البخاري، محمد بن إسماعيل: **الجامع الصحيح** (بهامش فتح الباري)، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار المعرفة، كتاب المناقب (3611) وأبو داود، سليمان بن الأشعث، **السنن**، تحقيق محي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، كتاب السنة (4767)، وابن حنبل، أحمد، **المسند**، بيروت: دار صادر، (235/1).

أعمالكم، فمن أظهر لنا خيرا أَمنَّاهُ وقربناه، وليس إلينا من سريرته شيء الله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه، و لم نصدقه، وإن قال إن سريرته حسنة".[13]

2- الوهم والخطأ

إذا افترضنا هنا استبعاد سوء النية لدى كثير من نقلة حديث رسول الله ﷺ، فلا يمكن أن نستبعد أن خللاً وزللاً قد وقع منهم، وهذا سيؤدي حتماً إلى ظهور مرويات تنسب إلى الدين وهي ليست كذلك، فلقد زود الله عزّ وجلّ الإنسان بأدوات الإحساس بالأشياء وعقلها، لتكون لديه المقدرة على الحفظ والنقل والإفادة، يقول عزّ وجلّ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: 78)، ويقول: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الأحقاف: 26).

كما أن صحابة رسول الله ﷺ كان منهجهم واضحاً في توظيف هذه الأدوات، لخدمة حديث رسول الله ﷺ فعن سَعِيد الْمَقْبُرِيّ أنه سمع أبا شُرَيْح الخُزَاعِي يقول: "سمِعَتْ أُذُنَايَ وَبَصُرَ عَيْنِي ووعَاه قلبي حين تكلم به رسول اللَّه ﷺ...[14]

ومع ذلك فإن الخطأ والوهم يقع من الإنسان، ومن رحمة الله عزّ وجلّ بنا أن عفا عنه، قال عزّ وجلّ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَـكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ (الأحزاب: 5)، وقال عليه الصلاة والسلام: "كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ فَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ"،[15] ولذلك نجد صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم،

---

[13] البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الشهادات (2641).

[14] مسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب الإيمان (48) واللفظ له، والبخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الأدب (6019) والترمذي، محمد بن عيسى، **الجامع الصحيح**، تحقيق أحمد شاكر وآخرون، بيروت، كتاب البر والصلة (1967).

[15] أخرجه أحمد، **المسند**، (198/3) ، والترمذي، **الجامع الصحيح**، كتاب الزهد (2337). وسنده حسن.

يعاودون بعضهم بعضا في مذاكرة الحديث ومراجعة الحفظ، والتأكد حتى لا تقع مثل هذه الأخطاء.

ولنأخذ مثالاً على ذلك؛ فعن ابن شهاب قال: زعم محمود أنه سمع عتبان بن مالك الأنصاري رضي الله عنه وكان ممن شهد بدراً مع رسول الله ﷺ يقول كنت أصلي لقومي ببني سالم....، فسمع أهل الدار رسول الله ﷺ في بيتي فثاب رجال منهم حتى كثر الرجال في البيت فقال رجل منهم: ما فعل مالك لا أراه، فقال رجل منهم: ذاك منافق لا يحب الله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ: "لا تَقُلْ ذَاكَ أَلَا تَرَاهُ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّه"، فقال: الله ورسوله أعلم، أما نحن فوا الله لا نرى وده ولا حديثه إلا إلى المنافقين. قال رسول الله ﷺ: "فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّه"، قال محمود بن الربيع: فحدثتها قوما فيهم أبو أيوب صاحب رسول الله ﷺ في غزوته التي توفي فيها ويزيد بن معاوية عليهم بأرض الروم، فأنكرها علي أبو أيوب، قال: والله ما أظن رسول الله ﷺ قال ما قلت قط. فكبر ذلك علي فجعلت لله علي إن سلمني حتى أقفل من غزوتي أن أسأل عنها عتبان بن مالك رضي الله عنه إن وجدته حيا في مسجد قومه. فقفلت فأهللت بحجة أو بعمرة، ثم سرت حتى قدمت المدينة فأتيت بني سالم فإذا عتبان شيخ أعمى يصلي لقومه، فلما سلم من الصلاة سلمت عليه وأخبرته من أنا، ثم سألته عن ذلك الحديث فحدثنيه كما حدثنيه أول مرة.[16]

قال ابن حجر: "وكأن الحامل لمحمود على الرجوع إلى عتبان ليسمع الحديث منه ثاني مرة أن أبا أيوب لما أنكر عليه اتهم نفسه بأن يكون ما ضبط القدر الذي أنكره عليه، ولهذا قنع بسماعه عن عتبان ثاني مرة...، ثم قال: وفيه استثبات طالب الحديث شيخه عما حدثه به إذا خشي من نسيانه وإعادة الشيخ الحديث، والرحلة في طلب العلم وغير ذلك".[17]

---

[16] البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب التهجد (1186).

[17] ابن حجر، أحمد بن علي: **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** ، تحقيق عبد العزيز بن باز، وترقيم أحمد شاكر، بيروت: دار المعرفة، (62/3).

إن الخطأ يعالج بالإصلاح والتتبع، وبيان الأمر والوجه الحق فيه وذلك بإرجاعه إلى أهل الاختصاص ومن هم أعلم بحديث رسول الله ﷺ، فعن جابر بن سمرة أن رسول الله ﷺ "كَانَ يَخْطُبُ قَائِمًا ثُمَّ يَجْلِسُ ثُمَّ يَقُومُ فَيَخْطُبُ قَائِمًا". فمن نبأك أنه كان يخطب جالسا فقد كذب فقد والله صليت معه أكثر من ألفي صلاة".[18]

قال عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (طه:115)، فنبي الله آدم عليه السلام وقع منه النسيان بطبعه البشري، وهذا طبيعي في ابن آدم، وجاء الأمر الإلهي لنبيه بذكر الله عزّ وجلّ عند النسيان، ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ (الكهف:24)، ودعاء المسلمين ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ الآية (البقرة: 286)، ووقف رسول الله ﷺ يوما بين يدي المسلمين مصليا، فنسي في صلاته حتى قيل: له أقصرت الصلاة أم نسيت؟ كما في حديث ذي اليدين في السهو.[19]

وقد وقع هذا من بعض صحابة رسول الله ﷺ، فقد أخرج أبو داود عن همام أن حذيفة أم الناس بالمدائن على دكان، فأخذ أبو مسعود بقميصه فجبذه، فلما فرغ من صلاته قال:ألم تعلم أنهم كانوا ينهون عن ذلك؟ قال: بلى قد ذكرت حين مددتني."[20]

وها هو ابن عمر يروي أن النبي ﷺ "أَمَرَ بِقَتْلِ الْكِلَابِ إِلَّا كَلْبَ صَيْدٍ أَوْ كَلْبَ غَنَمٍ أَوْ مَاشِيَةٍ". فَقِيلَ لِابْنِ عُمَرَ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: "أَوْ كَلْبَ زَرْعٍ". فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: إِنَّ لِأَبِي هُرَيْرَةَ زَرْعًا".[21] ثم صار يحدث بالحديث وينسبه إلى أبي هريرة، فعنْ سالم بن

---

[18] مسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب الجمعة (862)، والنسائي، أحمد بن شعيب، **السنن الصغرى** (المجتبى)، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، حلب: دار البشائر الإسلامية، 1986م، كتاب الجمعة (1417)، وأبو داود، **السنن**، كتاب الصلاة (1093)، وأحمد، **المسند**، (77/2، 235).

[19] انظر: الأصبحي، مالك بن أنس: **الموطأ**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1951م، كتاب النداء للصلاة (195–196)، والبخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الصلاة (482)، ومسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب المساجد (573)، وأبو داود، **السنن**، كتاب الصلاة (1008)، والترمذي، **الجامع الصحيح**، كتاب الصلاة (399)، والنسائي، **السنن الصغرى**، كتاب السهو (1224)، وابن ماجة، محمد بن يزيد، **السنن**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر، كتاب إقامة الصلاة (1214).

[20] أبو داود، **السنن**، كتاب الصلاة (597)، وسنده صحيح.

[21] مسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب المساقاة (1571)، والترمذي، **الجامع الصحيح**، كتاب الأحكام (1488).

عبد اللَّه عن أَبيه أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ:" مَنْ اقْتَنَى كَلْبًا إِلَّا كَلْبَ مَاشِيَة أَوْ كَلْبَ صَيْد نَقَصَ مِنْ عَمَلِه كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ". قَالَ عَبْدُاللَّه: وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: "أَوْ كَلْبَ حَرْث".[22] ثم أصبح يرويه تاما عن رسول الله ﷺ عن سعيد بن المسيَّب عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ قَالَ: "مَنْ اقْتَنَى كَلْبًا لَيْسَ بِكَلْبِ صَيْدٍ وَلَا مَاشِيَةٍ وَلَا أَرْضٍ فَإِنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِ قِيرَاطَانِ كُلَّ يَوْمٍ".[23]

وينكر الناس يوما على عائشة رضي الله تعالى عنها في أمر ما، فتحتج عليهم بأن الناس قد نسوا وتقيم الدليل على ما ذهبت إليه، فعن عباد بن عبد الله بن الزبير أن عائشة أمرت أن يمر بجنازة سعد بن أبي وقاص في المسجد فتصلي عليه، فأنكر الناس ذلك عليها، فقالت: ما أسرع ما نسي الناس ما صلى رسول الله ﷺ على سهيل بن البيضاء إلا في جوف المسجد".[24]

يقول الأعظمي: "فالإنسان قد يخطئ بالنسيان وقد يخطئ بالتعمد، لكن النتيجة في الحالتين واحدة بالنسبة لصدق الحديث وكذبه، وبما أن أحاديث النبي ﷺ وسنته مصدر للتشريع وأسوة للمؤمنين ونبراس للمسلمين إلى يوم القيامة، لذلك كان لابد من تنقيتها من كافة شوائب الأخطاء، سواء كان ذلك بالنسيان أم بالتعمد".[25]

3. الاختلاف في الفهم:

شاء الله تعالى أن يخلق الناس على درجات متفاوتة في الفهم والعلم والاستنباط، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: 118–119) فاختلاف الناس في الفهم طبيعي، والقدرة على الفهم فيما بينهم أيضاً مختلفة، وما عرفه واحد أو اثنان.. لا يعرفه آخرون وهكذا..، وهذا يعني بالضرورة عدم كمال العقل البشري، فهو بحاجة إلى غيره دائماً، من هنا

---

[22] مسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب المساقاة (1574).

[23] النسائي، **السنن الصغرى**، الصيد (4290)، وأبو داود، **السنن**، كتاب الصيد (2844)، وأحمد، **المسند** (4/2).

[24] مسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب الجنائز (973)، ومالك، **الموطأ**، كتاب الجنائز (484) وأحمد، **المسند** (79/6).

[25] الأعظمي، **مقدمة كتاب التمييز**، مرجع سابق ص (7).

أصبح الاختلاف طبيعياً في الأمور الفرعية والجزئية، وما اختلاف أصحاب النبي ﷺ في مسألة الصلاة في بني قريظة[26] إلا من هذا الباب.

أما الاختلاف في الأصول فإنه مهلكة، مؤد إلى الفرقة والشتات فعن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ".[27] ولذلك نجد أصحاب رسول الله ﷺ اختلفت أفهامهم حول مسألة ما، ولم يعب أحدهم على الآخر، فها هو علي رضي الله عنه يسأله أبو جحيفة هل عنده كتاب خاص؟ فيقول: لا إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة".[28]

وأنس رضي الله تعالى عنه لا يتردد في رد حديث لأنه فهم من خلال فعل النبي ﷺ ما يناقضه، عن عاصم قال: قلت لِأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَبَلَغَكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ؟. فَقَالَ: قَدْ حَالَفَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَالْأَنْصَارِ فِي دَارِي".[29]

4. القراءة الجزئية

أو غياب الحديث عن البعض وعدم المعرفة به.

جاء الإسلام وفتح العقول وأنارها ووسع مداركها وفهومها، وجعل الإنسان ينظر إلى الأشياء بشمولية وتوازن وإدراك ما بينها من علاقات، تؤدي بالنتيجة النهائية إلى

---

[26] انظر البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الجمعة (946)، ومسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب الجهاد والسير (1750).

[27] البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (7288)، ومسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب الحج (1337)، والنسائي، **السنن**، كتاب مناسك الحج (2619)، وابن ماجة، **السنن**، المقدمة (1).

[28] البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب العلم (111)، والترمذي، **الجامع الصحيح**، كتاب الديات(1482)، والنسائي، **السنن**، كتاب القسامة (4744).

[29] البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الحوالات (2294)، ومسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب فضائل الصحابة (2529)، وأحمد، **المسند** (111/3).

قيام منظومة متكاملة في الفهم والإدراك، ولذلك حذر القرآن الكريم من تفريق الدين أجزاء، وقيام شيع وأحزاب على هذه الجزئيات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام: 159)، كما نعى على الذين يؤمنون بجزء من كتبهم يوافق هواهم، ويكفرون بجزء آخر لا يوافق هواهم ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.﴾ (البقرة: 85).

وقد جاء القرآن الكريم بتعبير غاية في الدقة والوصف، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ* الَّذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (الحجر: 90-91)، قال الفخر الرازي: "والتعضية التجزئة والتفريق، يقال عضيت الجزور والشاة تعضية إذا جعلتها أعضاء وقسمتها"[30]، إذن لا تجوز القراءة الجزئية ولا الاستنتاجات الجزئية لأنها ستؤدي إلى أحكام جزئية، وهذا ما أدى بالبعض لأن يطلق أحكاماً متسرعة، دون أن تكون هناك نظرة شمولية تكاملية، الأصل فيها أن تؤدي إلى أحكام إلى الصواب هي أقرب، وهذا –بالضرورة- يلزم كثيراً ممن يتكلم في نقد المتون أن لا يستعجلوا الأمر في اتخاذ الحكم واستصداره جزافاً، بل لا بد من التريث، والإحاطة بالأمر من جميع جوانبه حتى يحكم بقبول النص أو برده.

أما غياب الحديث عن بعض الصحابة فهذه مسألة معلومة في عصر النبوة، فإن بعض الصحابة رضوان الله تعالى عنهم يكونون في أعمالهم ومزارعهم وتجارتهم وفي بعوث الجهاد...، فقد يغيب عن بعضهم بعض حديث رسول الله ﷺ مما يولد إشكاليات عندهم، أو عند غيرهم، نتيجة هذا الأمر، وما حادثة أبي ذر مع عمر رضي الله عنهما في الاستئذان علينا بخافية، ووقف رضي الله عنه يوما ينشد الناس الله عزّ وجلّ فيمن سمع من النبي ﷺ شيئاً في مسألة ما، فعن أَبي هريرة قال أُتِيَ عمر بامرأَةٍ تَشِمُ. فقام فقال: أَنْشدكم باللَّه من سمع من النَّبِيِّ ﷺ فِي الْوَشْمِ؟ فقال أَبُو هريرة:

[30] الرازي، محمد بن عمر: **التفسير الكبير**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1997م، ط2، (163/7).

فقمت فقلت: يا أَمير المؤمنين! أَنَا سمعت. قال: ما سمعت؟ قال: سمعت النَّبِيَّ ﷺ يقول: "لَا تَشِمْنَ وَلَا تَسْتَوْشِمْنَ."[31]

ويستغرب الناس من صنيع ابن عباس في يوم ماطر فيأمر المؤذن لما بلغ حي على الصلاة أن يقول: "الصَّلَاةُ فِي الرِّحَالِ". فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فَكَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا. فَقَالَ: كَأَنَّكُمْ أَنْكَرْتُمْ هَذَا ؟ إِنَّ هَذَا فَعَلَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي -يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ- إِنَّهَا عَزْمَةٌ وَإِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أُحْرِجَكُمْ".[32]

وها هو أبو بكر رضي الله عنه مع شدة حرصه على حديث رسول الله ﷺ، ومتابعته له إلا أنه كان يغيب عنه بعضه، فعن ميمون بن مهران قال: كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصم نظر في كتاب الله، فإن وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به، وإن لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله ﷺ في ذلك الأمر سنة قضى به، فإن أعياه خرج فسأل المسلمين فقال: أتاني كذا وكذا، فهل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى في ذلك بقضاء؟ فربما اجتمع إليه النفر كلهم يذكر من رسول الله ﷺ فيه قضاء، فيقول أبو بكر: الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ على نبينا"[33].

وهذا الذي جعل معاوية رضي الله عنه يقع في عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، ويشنع عليه في مقالته، وما ذاك إلا لغياب هذا الأمر عنه.[34]

---

[31] البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب اللباس (59446) والنسائي، **السنن**، كتاب الزينة (5106)

[32] البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الأذان (668)، ومسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب صلاة المسافرين (699)، وأبو داو د، **السنن**، كتاب الصلاة (1066)، وابن ماجة، **السنن**، كتاب إقامة الصلاة (938).

[33] الدارمي، عبد الله بن بهرام: **السنن**، القاهرة، دار الفكر، 1978م، المقدمة (161).

[34] إشارة إلى الحديث الذي أخرجه البخاري في المناقب (3500) عن محمد بن جبير بن مطعم أنه كان يحدث أنه بلغ معاوية وهو عنده في وفد من قريش أن عبد الله بن عمرو بن العاص يحدث أنه سيكون ملك من قحطان فغضب معاوية فقام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال أما بعد فإنه بلغني أن رجالا منكم يتحدثون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله ﷺ فأولئك جهالكم فإياكم والأماني التي تضل أهلها فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين.

ثالثاً: قواعد النقد في الكتاب والسنة

أستخدم العلماء عدداً من المعايير، وفي سياق هذه البحث نركز الحديث على خمسة منها هي: المخالفة الصريحة للقرآن الكريم، والسنة المعلومة المشهورة، والواقع والحس، والثابت من التاريخ، والمعقول. وقد أورد العلماء في حديثهم عن قواعد نقد الخبر طرقاً مختلفة في العرض، فمنهم من جمع أكثر من قاعدة في نص مختصر، ومنهم من تحدث عن قاعدة محددة وفصل فيها القول.

قال ابن الجوزي: "ألا ترى أنه لو اجتمع خلق من الثقات فأخبروا أن الجمل قد دخل في سم الخياط لما نفعتنا ثقتهم، ولا أثرت في خبرهم، لأنهم أخبروا بمستحيل فكل حديث رأيته يخالف المعقول، أو يناقض الأصول، فاعلم أنه موضوع، فلا تكلف اعتباره، واعلم أنه قد يجيء في كتابنا هذا من الأحاديث ما لا شك في وضعه، غير أنه لا يتعين لنا الواضع من الرواة، وقد يتفق رجال الحديث كلهم ثقات والحديث موضوع أو مقلوب أو مدلس، وهذا أشكل الأمور".[35]

وقال الخطيب البغدادي: "لا يقبل خبر الواحد في منافاة حكم العقل، وحكم القرآن الثابت المحكم، والسنة المعلومة، والفعل الجاري بمجرى السنة، وكل دليل مقطوع به".[36]

وقال الشوكاني: "وأما الشروط التي ترجع إلى مدلول الخبر، فالأول منها أن لا يستحيل وجوده في العقل، فإن أحاله العقل رد، والشرط الثاني أن لا يكون مخالفا لنص مقطوع به على وجه لا يمكن الجمع بينهما بحال، والشرط الثالث أن لا يكون مخالفاً لإجماع الأمة، عند من يقول بأنه حجة قطعية."[37]

---

[35] ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي: **الموضوعات**، تحقيق محمود القيسية، أبو ظبي: مؤسسة النداء، 2003م، ط3، (122/2).

[36] الخطيب البغدادي، أحمد بن علي: **الكفاية في علم الرواية**، القاهرة، دار الكتب الحديثة، 1972م، ط2، ص 606، وانظر: السيوطي، **تدريب الراوي** مرجع سابق (276/2).

[37] الشوكاني، محمد بن علي: **إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول**، تحقيق محمد سعيد البدري، بيروت: دار الفكر، ص 103.

ومع ذلك فإن ما ذكره علماؤنا في هذا الباب لا يعدوا أن يكون ضمن الأطر التي أسس لها في كتاب الله وسنة نبينا محمدﷺ، وهي:

1- الرد إلى كتاب الله عزّ وجلّ وعرض المسالة عليه.

يقول عزّ وجلّ: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (الشورى: 10).

إذن الميزان هو الرد إلى الله، إلى كتاب الله عزّ وجلّ، فهو الحكم العدل في هذه المسألة، ويجب إرجاع الأمر إليه أولاً وآخراً، وهنا يأتي بيان عظيم من الله عزّ وجلّ لنبيه، حينما يقول: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ. وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (يونس: 94-95).

فالشك لم يقع منه ﷺ، لكن نلاحظ كيف كان إرجاع المسألة إلى الكتاب، وهو منهج أراده الله عزّ وجلّ للأمة أن تعود إليه وأن تتعلمه.

إذن ينبغي أن يرد الأمر إلى الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء:59).

ونلاحظ أن الله عزّ وجلّ أقام الحجة على قريش، في ادعائها بأن محمداً ﷺ مفتر وساحر بأن لا كتاب لديهم يشكل مرجعية لما هم عليه، يقول عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ اٰيَاتُنَا بَيِّنَات قَالُواْ مَا هَـذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ اٰبَاؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَـذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِّن نَّذِيرٍ * وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (سبأ: 43-45).

لقد كان الرد المفحم على هذه المقالة يتمثل في أمرين لا تملك قريش لهما رداً، أولهما: لا يوجد عندهم كتاب يشكل مرجعية لمعتقداتهم وما هم عليه عاكفون من عبادة يعبدونها، والأمر الآخر والذي يكذب ادعاءهم أن الله عزّ وجلّ لم يبعث فيهم رسولاً قبل محمد ﷺ، فمن أين جاءوا بمقولتهم هذه؟! إذن ما هي إلا اختراع من عند أنفسهم.

انظر أيضاً إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَـــذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام 148-150).

تتمثل مقالتهم في أن الشرك الذي يقيمون عليه -ومن قبل آباؤهم- ما هو إلا أمر قسري قهري أجبروا عليه، وكذا التحريم والتحليل هو من هذا الباب أيضا، فكان الرد عليهم؛ إن هذا أمر تكرره كل أفواه الكفرة والملحدين فلا استغراب في ذلك، لكن كانت عاقبتهم وخيمة، فماذا ينتظرون حتى يصيبهم ما أصاب من قبلهم؟ ثم إنهم لا يملكون أي دليل علمي يؤيد مقالتهم بل هم يتبعون الظن والرجم بالغيب من غير علم ولا معرفة، ولو كان له شبهة دليل لطاروا به فرحاً، قال الفخر الرازي: "قوله تعالى (هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) لاشك أنه استفهام على سبيل الإنكار، وذلك يدل على أن القائلين بهذا القول ليس لهم به علم ولا حجة، وهذا يدل على فساد المذهب لأن كل ما كان حقا كان القول به علماً".[38]

وإذا كانوا يعترفون بقدرة الله عزّ وجلّ فإنه قادر على أن يهديهم جميعاً، وما داموا يعترفون بالقدرة لهذا الإله فلم لا يؤمنون به؟! والإله القادر على الغواية-كما يزعمون- قادر على الهداية، قال الفخر الرازي: "إنه تعالى أعطاكم عقولاً كاملة

[38] الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق (173/5).

وأفهاماً وافية وآذناً سامعة وعيوناً باصرة وأقدركم على الخير والشر وأزال الأعذار والموانع بالكلية عنكم، فإن شئتم ذهبتم إلى عمل الخيرات وإن شئتم إلى عمل المعاصي والمنكرات، وهذه القدرة والمكنة معلومة الثبوت بالضرورة، وزوال الموانع والعوائق معلوم الثبوت أيضاً بالضرورة، وإذا كان الأمر كذلك كان ادعاؤكم أنكم عاجزون عن الإيمان والطاعة دعوى باطلة فثبت بما ذكرنا أنه ليس لكم على الله حجة بالغة! بل لله الحجة البالغة عليكم".[39]

وهل هناك من يشهد معهم على ما ذكروه، حتى وإن شهدوا فإنهم ليسوا أهلاً للشهادة، فهم مجروحون في عدالتهم، والسبب أنهم كذبة وكفرة ومشركون بالله ومتبعون لأهوائهم، ومن هذه صفته فلا تقبل شهادته.

ونجد رسول الله ﷺ يرد الصحابة إلى كتاب الله عزّ وجلّ لفهم المسائل المشكلة، ومنها؛ ما وري عن عبد اللّه ابن مسعود رضي اللّه عنه قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾، قلنا: يا رسول اللّه! أَيُّنَا لا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ، "لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ"، بِشِرْكٍ، أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾".[40]

ونجد أن هذا الأمر جلياً واضحاً، من خلال عمل الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فعن عبد الرحمن بن يزيد قال: أكثروا على عبد الله –ابن مسعود– قال عبد الله: "إنه قد أتى علينا زمان ولسنا نقضي، ولسنا هنالك، ثم إن الله عز وجل قدر علينا أن بلغنا ما ترون، فمن عرض له منكم قضاء بعد اليوم فليقض بما في كتاب الله، فإن جاء أمر ليس في كتاب الله فليقض بما قضى به نبيه ﷺ، فإن جاء أمر ليس في كتاب الله ولا قضى به نبيه ﷺ فليقض بما قضى به الصالحون، فإن جاء أمر ليس في كتاب الله ولا قضى به نبيه ﷺ ولا قضى به الصالحون فليجتهد رأيه، ولا يقول إني أخاف وإني

---

[39] المصدر السابق (174/5).

[40] أخرجه البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب أحاديث الأنبياء (3360)، ومسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب الإيمان (124)، والترمذي، **السنن**، كتاب التفسير (3067)، وأحمد، **المسند** (378/1).

أخاف، فإن الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك".[41]

2- الرد إلى السنة:

بين القرآن الكريم أن الله عزّ وجلّ بعث محمداً ﷺ ليبين للناس ما أنزل الله عزّ وجلّ على عبده، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويخبرهم بمراد الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: 44).

وجعل الله عزّ وجلّ طاعة نبيه واجبة، وجزءاً لا يتجزأ من عقيدة المسلم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء: 59).

وبين أن ما جاء به من أوامر ونواه، هي ليست من عنده ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: 4).

ولذلك جاء مؤكدا هذه الحقيقة في أكثر من آية تتلى؛ قال عزّ وجلّ: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ﴾ (الحشر:7).

وقد بين رسول الله ﷺ أنه أوتي القرآن ومثله معه، فعن المِقْدَام بن مَعْدي كَرِبَ الكندي قال: قال: رسول اللَّه ﷺ: "أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ".[42]

كما حذر من الاعتماد على القرآن وحده في فهم الإسلام، لأنه من غير بيانه ﷺ لا يمكن أن يفهم، فعن الْمِقْدَامَ بْنَ مَعْدي كَرِبَ قال: حَرَّمَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ أَشْيَاءَ. ثُمَّ قَالَ: يُوشِكُ أَحَدُكُمْ أَنْ يُكَذِّبَنِي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِه يُحَدَّثُ بِحَدِيثِي

[41] أخرجه النسائي، **السنن الصغرى**، كتاب آداب القضاة (5379)، قال النسائي: هذا حديث جيد، جيد.

[42] أخرجه أبو داود، **السنن**، كتاب السنة (4604)، وأحمد، **المسند** (131/4)، وسنده صحيح.

فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّه فَمَا وَجَدْنَا فيه منْ حَلَال اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فيه منْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ، أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّه ﷺ مثْلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ".[43]

وعن أبي رَافعٍ وَغَيْره رَفَعَهُ قال: "لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكئًا عَلَى أَريكَته يَأْتيه أَمْرٌ ممَّا أَمَرْتُ به أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ: لَا أَدْري مَا وَجَدْنَا في كتَاب اللَّه اتَّبَعْنَاهُ".[44]

وهاهو النبي ﷺ يعطي مثالاً واضحاً في نقد الأخبار وبيان وجه الصواب والخطأ فيها، فعن أَبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال النبي ﷺ: "أَصْدَقُ كَلمَة قَالَهَا الشَّاعرُ، كَلمَةُ لَبيدٍ أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطلُ، وَكَادَ أُمَيَّةُ ابْنُ أَبي الصَّلْت أَنْ يُسْلمَ".[45]

ونجد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يستغرب رواية نقلت إليه وجدها تخالف ما يفعله رسول الله ﷺ، فيبين له رسول الله ﷺ الأمر، ويزيل له وجه الاستغراب عنه، قال عبد الله: حُدِّثْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَال: "صَلَاةُ الرَّجُلِ قَاعدًا نصْفُ الصَّلَاة". قال: فأَتَيْتُهُ فَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي جَالسًا، فَوَضَعْتُ يَدي عَلَى رَأْسه، فقال: مَا لَكَ يَا عَبْدَ اللَّه بْنَ عَمْرو! قُلْتُ: حُدِّثْتُ يَا رَسُولَ اللَّه! أَنَّكَ قُلْتَ: صَلَاةُ الرَّجُل قَاعدًا عَلَى نصْف الصَّلَاة وَأَنْتَ تُصَلِّي قَاعدًا؟ قَالَ: "أَجَلْ وَلَكنِّي لَسْتُ كَأَحَد منْكُمْ".[46]

وكان هذا الأمر جلياً واضحاً من خلال عمل أصحاب رسول الله ﷺ، فعن أمية بن عبد الله بن خالد أنه قال لعبدالله بن عمر: إنا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف في القرآن ولا نجد صلاة السفر في القرآن؟ فقال له ابن عمر: يا ابن أخي! إن الله عز وجل بعث إلينا محمداً ﷺ ولا نعلم شيئاً، وإنما نفعل كما رأينا محمداً ﷺ يفعل".[47]

---

[43] ابن ماجة، **السنن**، المقدمة (12)، وأحمد، **المسند** (134/4).

[44] الترمذي، **الجامع الصحيح** العلم (2663)، وأبو داود السنة (4605)، وابن ماجة المقدمة (13)، وأحمد (8/6)، قَالَ أَبُو عيسَى هَذَا حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ.

[45] البخاري، **الجامع الصحيح** ، كتاب الأدب (6147) ومسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب الشعر (2256) والترمذي، **الجامع الصحيح**، كتاب الأدب (2849)، وابن ماجة، **السنن**، كتاب الأدب (3757) وأحمد، **المسند** (470/2).

[46] مسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب صلاة المسافرين (735)، والنسائي، **السنن الصغرى**، كتاب قيام الليل (1659)، وأبو داود، **السنن**، كتاب الصلاة (950)، وأحمد، **المسند** (203/2)

[47] النسائي، **السنن الصغرى**، كتاب تقصير الصلاة (1434)، وابن ماجة، **السنن** ، كتاب إقامة الصلاة (1066).

ويقف عمر رضي الله عنه يوماً متسائلاً، فيم الرملان اليوم والكشف عن المناكب وقد أطأ الله الإسلام ونفى الكفر وأهله؟! ثم يجيب نفسه بعبارة كلها التأسي والانقياد لأمر رسول الله ﷺ، يقول عمر رضي الله عنه:"مع ذلك لا ندع شيئاً كنا نفعله على عهد رسول الله ﷺ".[48]

وعلي رضي الله عنه يذكر له أن أناسا يكرهون الشرب وقوفا فيحتج عليهم بما فعله رسول الله ﷺ، فعن النـــزال قال: أتى عـــلي رضي الله عنه على باب الرحبة فشرب قائما، فقال: إن ناسا يكره أحدهم أن يشرب وهو قائم، وإني رأيت النبي ﷺ فعل كما رأيتموني فعلت".[49]

وأما سعد رضي الله عنه فلا يخشى أحداً ما دام أنه يقتدي بسنة رسول الله ﷺ ويجعلها مرجعيته، عن جابر بن سمرة قال: قال عمر لسعد: لقد شكوك في كل شيء حتى الصلاة. قال: أما أنا فأمد في الأوليين وأحذف في الأخريين، ولا آلو ما اقتديت به من صلاة رسول الله ﷺ. قال: صدقت. ذاك الظن بك، أو ظني بك.[50]

3- الواقع المحسوس:

الواقع المنظور من قبل الإنسان، ويدركه بحواسه، هو عالم الشهادة الفسيح، الذي أدرك الإنسان جزء منه، ولا يزال يجهل منه الكثير، لكن هناك أمور وأشياء أصبحت بالنسبة لأي إنسان بديهية لا يمارى فيها، ولا يحاول باعتبارها حقائق ووقائع، مجرد تكذيبها، يتهم الإنسان في عقله أو في قدراته العقلية، ولقد كان منهج الكتاب والسنة واضحاً أشد الوضوح والبيان في هذه المسألة بالذات، والأمثلة كثيرة جداً.

---

[48] أبو داود، **السنن**، كتاب المناسك (1887) وابن ماجة، **السنن** ، كتاب المناسك (2952)

[49] البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الأشربة (5615) والنسائي، **السنن الصغرى**، كتاب الطهارة (130) وأبو داود، **السنن** ، كتاب الأشربة (3718).

[50] البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الأذان (770)، ومسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب الصلاة (453)، والنسائي، **السنن الصغرى**، كتاب الافتتاح (1002)، وأبو داود، **السنن**، كتاب الصلاة (803)، وأحمد، **المسند** (175/1).

المثال الأول: لنأخذ مقالة قريش لنبي الله ﷺ والتي نقلت قرآنا: ﴿وَقَالُواْ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (القصص:57)، فالواقع المحسوس لديهم أن من أراد الحرم بسوء، فإنه سيتخطف كما حصل مع أصحاب الفيل، وإن الواقع المدرك من قبلهم، أن هذه الأرض أرض آمنة بكفرهم وشركهم وعبادتهم الأصنام وما دام أن الله عزّ وجلّ أبعد عنهم تلك الشرور فهم على الحق، ومن يريد أن يزيلهم عن عبادتهم تلك ويغيِّرُ ما هم عليه فإن تغييراً سيطرأ أيضاً على قضية الأمن التي يعيشون، وهي اتباع الهدى الذي يدعيه هذا النبي، والتي ستؤدي إلى التخطف والاغتيال من حول الحرم حسب ظنهم وزعمهم.

والرد عليهم؛ إذا كنتم تعتقدون أن الله عزّ وجلّ هو حامي الحرم من كيد الكائدين، فإن الله عزّ وجلّ هو الذي بعث رسوله وأيده بمعجزة لم تستطيعوا الإتيان بمثلها فإن الواجب يحتم أن تؤمنوا بما جاء به هذا النبي، وإذا كانت قضية الإيمان تسبب هذا التخطف فلم لم يحدث للذين آمنوا؟ والدليل على ذلك أن الحرم آمن بل ويجبى إليه ثمرات كل شيء من عند الله تكرماً وتفضلاً.

وأكثر من ذلك أن الله جعل حرما آمنا ومنع الناس من التعرض له ولأهله بسوء، ولذلك جاء في آية تالية تذكير بهذا الشأن: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (العنكبوت:67)، فلو كان محمد ﷺ يريد بالحرم سوءا لتخطف، أما وإنه لم يحدث فإن ما تفوهوا به هو غير صحيح، والواقع يكذبه.

مثال ثان: ومقولة أخرى قالوها وهي: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (النحل 103).

فإن كان هذا الكتاب كلام البشر، فهذا يعني أن لديهم القدرة لأن يقولوا مثله، فتحداهم بمثله وبعشر سور وبسورة...، لكن أي بشر هذا الذي اتهموه به؟! إنه فتى أعجمي لا يحسن قولاً؟! وتصوروا كم لهذه المقالة من مصداقية على أرض الواقع،

فهاهم عجزوا عن الإتيان بمثله، مع أنه بلسان عربي مبين، لسانهم الذي يفخرون به ويتبارزون، فهم أهل الفصاحة والبلاغة، ثم يطلقون مقالة بأن شخصاً لا يفهم الكلام جاء بهذا الإعجاز!.

ثم جاءت آية أخرى تدحض مزاعمهم، بدليل آخر قال عزّ وجلّ على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (يونس: 16)، فإن هذه المدة التي مكثها ﷺ -وهي أربعين سنة- كفيلة بأن تخرج ما عنده من علم ومعرفة، فقد لبث فيهم عمرا ولو كان عنده أدنى معرفة بما جاء به لظهر عليه ولو مرة واحدة؟!، وجاءت آية ثالثة تدحض تلك المقالة بواقع يعرفونه وتاريخ معلوم لديهم، فما قرأ كتاباً من قبل ولا كتب بيده، فمن أين جاء بهذا الذي جاء به ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ.﴾ (العنكبوت: 48).

مثال ثالث: نجد في المقابل كيف كذب القرآن مقالة أهل الكتاب في ادعائهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (المائدة 18).

فهذه مقالتهم! وجاء الرد في إعجاز مذهل مختصر: فإن الناس -بشكل عام- مهما قست قلوبهم على أبنائهم وأحبائهم، فإنهم لا يعذبونهم على أخطائهم، والواقع أن من يقع منه العذاب على الآخرين فإنه لا يوقعه -في الأغلب- على أبنائه وأحبائه، فإنه يكتفي بالتوبيخ والتقريع لهم، ثم إن هناك فرق بين مقام الألوهية، ومقام البشرية، فإن الولد من جنس الوالد، وهؤلاء بشر، فهل الإله من البشر أم ماذا؟ ثم إن مسألة العذاب والغفران بيد الله عزّ وجلّ، لا يجوز لأي مخلوق أن يتدخل فيهما، مهما اعتقد هذا المخلوق عظم رتبته، فإنه يبقى مخلوقا، وإذا كانوا يعتقدون -بجهلهم وزعمهم- أن الله بحاجة إليهم، فإن لله ملك السموات والأرض، وهما أعظم من خلق الناس، ولا

شك أن مصير الخلق أجمعين إلى الله عزّ وجلّ لا محالة، وساعتئذ سيعرفون أن مقالتهم مقالة كذب وافتراء وزيف.

ولذلك نجد في آيات أخر، قد تحداهم الله عزّ وجلّ بأن يموتوا حتى يلاقوا ما يدعونه من عطف الأبوة وقرب الولاية لله، ﴿قُلْ يأَيُّهَا الَّذينَ هَادُواْ إن زَعمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للَّه من دُون النَّاس فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إن كُنتُمْ صَادقينَ. وَلاَ يَتَمَنَّونَهُ أَبَداً بمَا قَدَّمَتْ أَيْديهمْ وَاللَّهُ عَليمٌ بالظَّالمينَ﴾ (الجمعة: 6).

وجاء الخطاب الإلهي، يفضح مقالتهم ونواياهم، وأنهم إن كانوا صادقين فليتمنوا الموت فقط، وليس القيام به، ومع ذلك لم ولن يحدث منهم هذا، بسبب ذنوبهم وما قدمت أيديهم، فالله بهم عليم.

مثال رابع: في المقابل نجد النبي ﷺ ينظر من خلال الواقع الذي يعيش فيقبل بالأمر أو يرفضه، فعن جُدَامَةَ بنت وَهْب الْأَسَدِيَّة أَنَّهَا سَمعَتْ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُول: "لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنْ الْغيلَة حَتَّى ذَكَرْتُ أَنَّ الرُّومَ وَفَارسَ يَصْنَعُونَ ذَلكَ فَلَا يَضُرُّ أَوْلَادَهُمْ". [51]

ويحدث أبان بن عثمان عن أبيه بحديث رسول الله ﷺ فيستغرب رجل بين ما يرويه أبان وما قد حصل لأبان بما يناقض فحوى الحديث، فيزيل أبان هذا الإشكال، فعن أَبي الزِّنَاد عن أَبَانَ بن عُثْمان قال سمعت عثمان بن عَفَّان رضي اللَّه عنه يقول قال رسول اللَّه ﷺ: "مَا منْ عَبْد يَقُولُ في صَبَاح كُلِّ يَوْم وَمَسَاء كُلِّ لَيْلَة بسْم اللَّه الَّذي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمه شَيْءٌ في الْأَرْض وَلَا في السَّمَاء وَهُوَ السَّميعُ الْعَليمُ ثَلَاثَ مَرَّات لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ". وكان أَبَانُ قد أَصابه طَرَفُ فَالجٍ فجعلَ الرجل ينظر إليه. فقال له: أَبَانُ ما تنظر؟ أما إنَّ الْحديث كما حدثتك، ولكني لم أقله يومئذ ليُمْضيَ اللَّهُ علي قدره. [52]

---

[51] مسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب النكاح (1442) الترمذي، **الجامع الصحيح**، كتاب الطب (2076)، وأبو داود، **السنن**، كتاب الطب (3882)، والنسائي، **السنن الصغرى**، كتاب النكاح (3326)، وابن ماجة، **السنن**، كتاب النكاح (2011)، وأحمد، **المسند** (361/6، 434).

[52] الترمذي، **الجامع الصحيح**، كتاب الدعوات (3388) وابن ماجة، **السنن**، كتاب الدعاء (3869) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب.

4- التاريخ:

إن من أكثر العلوم تعقيداً وغموضاً ومسرحاً رحباً للآراء، هو التاريخ، ولا يكاد يكون فيه شيء ثابت ثبوتاً يقينيا، وكم قال ويقول وسيقول الذين يُعلِّمُون في هذا المجال أشياء هي محض خرافات لا واقع لها، أو مجرد فرضيات أو نظريات عرضة للتغيير والتبديل بين فترة وأخرى، ولولا أن القرآن الكريم أخبرنا عن أشياء وأحداث مضت تاريخا ما صدقناها.

صحيح أن الآثار والمستحثات التي يتم اكتشافها، تعطينا فكرة عن بعض الأشياء والأحداث، لكن لا يمكن أن تعطينا تسلسلاً تاريخياً كاملاً لكل الأحداث، ولا يمكن أن تعطينا تاريخاً دقيقاً لنشأة البشرية منذ الخليقة وإلى يومنا هذا، ويبقى الغموض مخيماً على كثير من الأحداث ولوقائع.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه، يقرأ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (إبراهيم: 9)، ثم يقول: "كذب النسابون".[53]

قال الفخر الرازي: "وقوله: ﴿لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾، فيه قولان: القول الأول: أن يكون الراوي لا يعلم كنه مقاديرهم إلا الله، لأن المذكور في القرآن جملة، فأما ذكر العدد والعمر والكيفية والكمية فغير حاصل، القول الثاني: أن المراد ذكر أقوام ما بلغنا أخبارهم أصلاً، كذبوا رسلاً لم نعرفهم أصلاً، ولا يعلمهم إلا الله".[54]

من هنا فإن القرآن جعل الرواية جزءاً أساسياً في قبول الأحداث التاريخية، هذه التي جاءت في الكتب التي أنزلت من عند الله عزّ وجلّ، وإذا بين القرآن لنا في غير آية، أن كل الكتب التي سبقت قد حرفت أو غيرت..، فإنه لا يبقى إلا القرآن الكريم وما نقل عن رسول الله ﷺ، في إثبات ودحض المرويات التاريخية التي تعرضاً لذكرها.

---

[53] الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان للطبري عن تأويل آي القرآن**، بيروت، دار الفكر، 1988م، (187/13).
[54] الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق (68/7).

ولذلك نجد القرآن الكريم نعى على الذين يتبعون آباءهم دون النظر والتفكير – ولو لحظة– أن ما قام به أو قاله الآباء والأجداد قد يكون غير صحيح، فلفت القرآن الأنظار إلى هذه المسألة وركز عليها كثيرا، قال عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: 170)، ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَاءَ الرَّحْمَـــنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ. أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِه فَهُم بِه مُسْتَمْسِكُونَ. بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا اٰبَاءَنَا عَلَى أُمَّة وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ. وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَة مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (الزخرف:22–23).

ولذلك وضع القرآن الكريم فرضية بسيطة لهم، وهي أنه يوجد احتمال –لا بد من اعتباره– بأن آباءهم كانوا مخطئين، أو كانوا في ضلال مبين.. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:171)، إذن ما هي إلا مقولات يرددونها كالببغاوات دون دراسة أو تمحيص أو تفكير.

ولنأخذ مثالا كيف أن الله عزّ وجلّ أقام الحجة على قريش ومن تبعهم في ادعائهم، بأن النبي ﷺ قد تعلم القرآن والعلم قبل الوحي: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِه مِن كِتَاب وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت: 48)، إذن الثابت والمعلوم من سيرته ﷺ عندهم –وهو تاريخ لديهم معلوم– أنه لم يتعلم القراءة ولا الكتابة، فلم يكتب حرفاً واحداً و لم يقرأ سطراً واحداً، فمن أين أتى بهذا الذي تحداهم به، فتاريخ محمد ﷺ الذي تعرفه قريش، يثبت أن النبي ﷺلم يتعلم على أيدي معلمين وكهنة وأحبار، كما تعلم غيره، وجاءوا بأشياء ادعوها..، فلم يقع ذلك من رسول الله ﷺ، ثم جاءت آية تثبت تاريخياً أن تعلم ما جاء به لم يقع خلال سني حياته الأربعين السابقة، قال عزّ وجلّ: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِه فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِه أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (يونس 16)، وقريش تدرك تماما أن ما تقوله هو

كفر وعناد ومهما قدم لهم الرسول ﷺ من أدلة واضحة بينة على صدق ما جاء به، فإنهم لن يؤمنوا، ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـــذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (الأنعام:7).

مثال آخر: ينقل القرآن مقالة لأهل الكتاب، مضمونها: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَـــاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: 140)، والجواب: من هو الأعلم إن كان هناك مجال للمقارنة أصلاً؟! ولحق أنهم يعلمون أن مقالتهم غير صحيحة، وهم يكتمون الصواب، ثم جاء الجواب المفحم تاريخياً من خلال قوله عزّ وجلّ: ﴿يأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِه أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * هَأَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِه عِلمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِه عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ. مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران:65-67).

نعم، متى أنزلت التوراة والإنجيل؟ وعلى من؟! فبداية تاريخ اليهودية والنصرانية، جاء مع أنبيائهم موسى وعيسى عليهما السلام، فمتى بعثا ومتى أنزلت عليهم الكتب؟! هل قبل إبراهيم أم بعده؟! إن كانت قبله فهذا جهل مطبق، وإن كانت بعده فكيف ينسب من جاء قبل لمن بعده؟! فهذا جدال من يدعي العلم ولا علم عنده، ولذلك جاء النص القرآني يقرعهم ويبكتهم على ادعائهم العلم، والمجادلة فيه، والحق أنهم يجادلون فيما ليس لهم فيه علم؟!

مثال ثالث: ولذلك نجد النبي ﷺ أمام هذه المعطيات، يأمر الصحابة وأمته بعدم تصديق أهل الكتاب، فيما لم يقم عليه دليل صدق، وعدم تكذيبهم في حالة عدم قيام دليل التكذيب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: "لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا الْآيَةَ".[55]

[55] البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب التفسير (4485).

وهذه منهجية متقدمة فإن الأحداث التاريخية لا يجوز إنكارها أو تصديقها إلا بعد أن يغلب على الظن أو يترجح لدينا جانب الصدق أو الكذب فيها، فإن تكذيب خبر ما أو تصديقه من غير دليل هو جهل، فلعله يظهر فيما بعد ما يؤيده أو ما ينقضه، وقد أقام النبي ﷺ الحجة على يهود وتكذيبهم في إنكارهم الرجم للزاني المحصن بالرجوع إلى المرويات التاريخية التي أثبتت كذبهم، عن ابن عمر رضي اللَّه عنهما قال: أُتِيَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بِيَهُودِيٍّ وَيَهُودِيَّة قَدْ أَحْدَثَا جَمِيعًا فَقَالَ لَهُمْ مَا تَجِدُونَ فِي كِتَابِكُمْ قَالُوا إِنَّ أَحْبَارَنَا أَحْدَثُوا تَحْمِيمَ الْوَجْه وَالتَّجْبِيهَ قَالَ عَبْدُ اللَّه بْنُ سَلَام ادْعُهُمْ يَا رَسُولَ اللَّه بِالتَّوْرَاة فَأُتِيَ بِهَا فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَة الرَّجْمِ وَجَعَلَ يَقْرَأُ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا فَقَالَ لَهُ ابْنُ سَلَام ارْفَعْ يَدَكَ فَإِذَا آيَةُ الرَّجْمِ تَحْتَ يَده فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّه ﷺ فَرُجِمَا قَالَ ابْنُ عُمَرَ فَرُجِمَا عِنْدَ الْبَلَاطِ فَرَأَيْتُ الْيَهُودِيَّ أَجْنَأَ عَلَيْهَا".

5- المعقول:

إن أي فكر -يستحق أن يذكر في عالم الأفكار- ظهر على وجه الأرض، سواء كان من عند الله أو من وضع البشر باصطلاح العقول السليمة عليه، فإنه يعتمد على ثوابت ومتغيرات، الثوابت من أجل الأصالة والقياس عليها والانطلاق في آفاق أرحب، والمتغيرات لمعالجة المستجدات في واقع الناس وإيجاد الحلول المناسبة لها، من هنا فإن العقول التي خلق الله عزّ وجلّ لها قواسم مشتركة فيما بينها، سواء كان أصحابها مؤمنين أم كفاراً، ذكوراً أم إناثاً..، وإلا فإنك لا تستطيع أن تبدأ حواراً أو تناقش إنساناً في أي مسألة مهما صغرت، فما لم يبدأ بالثوابت ومن ثم البناء عليها للوصول إلى الحق فلا حق ولا حقيقة، من هنا صار في عالم المعقول أشياء مسلمات وبديهيات من يناقش فيها كمسلمة يصبح ويمسي متهما في عقله، من هنا تعامل القرآن الكريم والسنة النبوية مع هذه الثوابت العقلية في كثير من الحالات، لبناء حالة فكرية منطقية تقبلها العقول وتسلم بها، للوصول إلى الحقيقة.

ومن هذه الأمثلة:

المثال الأول: انظر إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 79–80).

يعني هل يعقل أن إنسانا اصطفاه الله بالنبوة، وأعطاه كتاباً يؤيد دعواه، وزوده بالحكمة، ثم يستبد بالأمر وينقلب على منعمه ويدعي الألوهية من دون الله؟ إن أي حاكم حينما يختار شخصاً ويجعله موضع ثقته، ثم يستبد بالأمر دون سيده، فإن الناس تعجب لهذا النكران والجحود، كما أنها تعجب من الاثنين معا من الحاكم والشخص المختار، فإن خللاً في كليهما حينما وقع الأمر، فخرجنا بنتيجة، أن الحاكم لا يعرف الأشخاص بشكل جيد، ولا فيمن يضع ثقته، كما أن هذا الشخص استطاع خداع الحاكم حتى حصل له ما أراد، وهنا نعود إلى الصورة السابقة، ونكرر السؤال هل يعقل لنبي أن يدعو الناس لعبادة غير الله، وهل هناك خلل في المصطفِي والمصطفَى؟ كلا وحاشا!، ونلاحظ أيضاً أن الآية القرآنية الكريمة، حملت عناصر التعليم والتعلم للبشرية، فإن الناس الذين درسوا وتعلموا على أيدي النبيين، قاموا بمهمة النبي و لم يدعو الناس إلى عبادة غير الله، فمن باب أولى أن لا يقع من النبيين المصطفين من عند الله.

وهذا الذي ذكروه في الآية قاله الله تعالى لنبيه عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يعيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.﴾ (المائدة: 116–117) ونلاحظ رده عليه السلام بتكذيب ما جاء في الخبر أن أنبياء الله تعالى لا يمكن أن يقولوا أشياء من عند أنفسهم، أو أن يخالفوا الطريق الذي رسم لهم وحياً.

ولنأخذ مثالاً آخر، قال عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (الأعراف: 28–29).

إذن مقالتهم تحمل دليلين –وذلك حسب ادعائهم– على استجازتهم فعل الفاحشة: الأول: أنهم وجدوا آباءهم مقيمين عليها، الثاني: أن الله عزّ وجلّ أمرهم بها.

أما الأول: فلا شيء، فإن فعل الفاحشة من قبل الآخرين والسابقين، لا يبرر فعلها من قبل المتأخرين، فلو كان السابقون لا يعقلون شيئاً، أو كانوا في ضلال مبين! ماذا سيحل بهم؟ ولذلك نجد آيات كثيرة حملت هذا المعنى، ونعت على من قلد الآباء والأجداد دون أن يعمل عقله، وأما الثاني: فإن العقل البشري يحيل أن يأمر الله الناس بالفحشاء والمنكرات، والله عزّ وجلّ يريد للناس الابتعاد عنها بل ويريد لهم فعل الخيرات، كيف يعقل أن يأمرهم الله بها ويعذبهم عليها، فالله عزّ وجلّ يأمر بالقسط وعبادته ودعائه، فإن مصير البشرية عود على بدء، وسيقف كل واحد بين يدي الله عزّ وجلّ ليحاسب على ما اقترفت يداه.

مثال ثالث: أما حديث رسول الله ﷺ فإنه يحمل في ثناياه هذه المعاني ويركز عليها باعتبار أن العقول السليمة لا يمكن أن تتقبل هذه المقالة أو تلك إلا بالدليل والبرهان، فحديث رسول الله ﷺ له ضوء وهيبة يعرف بها، وتتعرفه قلوب العلماء قبل أبصارهم، وغير ذلك تنكره قلوبهم وتقشعر له أبدانهم، فعن أَبِي حُمَيْد وعن أَبِي أُسَيْد أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: "إِذَا سَمِعْتُمْ الْحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ وَتَلِينُ لَهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ فَأَنَا أَوْلَاكُمْ به، وَإِذَا سَمِعْتُمْ الْحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ وَتَنْفِرُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ".[56]

[56] أخرجه أحمد، **المسند** (425/5)، قال الهيثمي (علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، بيروت: دار الكتاب العربي، 1982م، ط3، رجاله رجال الصحيح.

ويؤكد النبي ﷺ أن الدين والأمة سيتعرضان إلى هزات عنيفة، وقد وضع ﷺ المعيار والمنهجية المتمثلة في الحفاظ على الأمة وأصولها، فعن عبد اللَّه بن عَمْرو بن الْعَاص أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَال: كَيْفَ بِكُمْ وَبِزَمَان أَوْ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ زَمَانٌ يُغَرْبَلُ النَّاسُ فيه غَرْبَلَةً تَبْقَى حُثَالَةٌ مِنْ النَّاسِ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وَأَمَانَاتُهُمْ وَاخْتَلَفُوا فَكَانُوا هَكَذَا -وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابعه- فَقَالُوا: وَكَيْفَ بِنَا يَا رَسُولَ اللَّه؟ قَال: تَأْخُذُونَ مَا تَعْرِفُونَ، وَتَذَرُونَ مَا تُنْكِرُونَ، وَتُقْبِلُونَ عَلَى أَمْرِ خَاصَّتِكُمْ وَتَذَرُونَ أَمْرَ عَامَّتِكُمْ".[57]

ونلاحظ أن النبي ﷺ يستثير الناحية العقلية في نفوس المسلمين حينما انكسفت الشمس فرد مقولة كانت معروفة عند العرب، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه قَالَ كَسَفَتْ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّه ﷺ...، ثُمَّ قَالَ: وَإِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَخْسِفَانِ إِلَّا لِمَوْتِ عَظِيمٍ وَإِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّه يُرِيكُمُوهُمَا فَإِذَا خَسَفَا فَصَلُّوا حَتَّى تَنْجَلِيَ"[58]، وعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ خَرَجَ يَوْمًا مُسْتَعْجِلًا إِلَى الْمَسْجِدِ وَقَدْ انْكَسَفَتْ الشَّمْسُ فَصَلَّى حَتَّى انْجَلَتْ ثُمَّ قَالَ إِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَقُولُونَ إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْخَسِفَانِ إِلَّا لِمَوْتِ عَظِيمٍ مِنْ عُظَمَاءِ أَهْلِ الْأَرْضِ وَإِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ وَلَكِنَّهُمَا خَلِيقَتَانِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يُحْدِثُ اللَّهُ فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ فَأَيُّهُمَا انْخَسَفَ فَصَلُّوا حَتَّى يَنْجَلِيَ أَوْ يُحْدِثَ اللَّهُ أَمْرًا"[59]، إذن ما هذه إلا مظاهر كونية لا علاقة لها بموت الأشخاص وحياتهم وإنما يجريها الله على النحو الذي يريده عزّ وجلّ.

ولما أرد النبي ﷺ دخول الكعبة تبين له أن فيها مجموعة من التماثيل يزعمون أنها لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ويصورونهم وبأيديهم الأزلام يقتسمون بها، فرد النبي ﷺ ذلك، وكيف يعقل بأنبياء الله عزّ وجلّ أن يصوروا على هذه الشاكلة من فعل الجاهلية، فعن ابن عَبَّاسٍ رضي اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ أَبَى أَنْ

---

[57] أبو داود، **السنن**، كتاب الملاحم (4342)، وأخرج البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الصلاة (480) جزء منه.

[58] مسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب الكسوف (904)، النسائي، **السنن الصغرى**، كتاب الكسوف (1478)، وأبو داود، **السنن**، كتاب الصلاة (1178).

[59] النسائي، **السنن الصغرى**، كتاب الكسوف (1485)، وابن ماجة، **السنن**، كتاب إقامة الصلاة (1262).

يَدْخُلَ الْبَيْتَ وَفيه الْآلهَةُ، فَأَمَرَ بهَا فَأُخْرِجَتْ، فَأَخْرَجُوا صُورَةَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ فِي أَيْدِيهِمَا الْأَزْلَامُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَقْسِمَا بِهَا قَطُّ". [60]

الخاتمة:

من خلال ما تقدم يبين لنا أن المنهجية المتبعة في النقد والتي تكفلت بحفظ ميراثنا إنما جاءت بها الأصول الشرعية ضمن أطر فائقة الدقة أعطت صورة واضحة ومتكاملة لمعالم تلك المنهجية، وإذا كان كذلك فإن هذه المنهجية يجب أن تشكل الأرضية المشتركة بين العلماء والمفكرين والباحثين في الدراسات الإسلامية، حتى لا يعيب فريق على آخر وتبدأ الاتهامات والاتهامات المضادة والتي لا تخلف إلا فرقة وشتاتاً، وتمترس كل فريق بما أوتي من علم من ومعرفة وإغلاق ما وُهِبْنا من سمع كان علينا أن نستعمله في طاعة الله تعالى وحفظ دينه وصونه، إذن ينبغي أن يكون رائدنا في هذا الأمر الوصول للحق وليس الطعن في شخص فلان أو علان، فالغاية هي الذب عن سنة رسول الله ﷺ والدفاع عنها، فكما كانت غاية علمائنا السابقين –عندما وضعوا قواعد نقد السند والمتن ورد أحاديث كثير من الرواة ليسوا جديرين بحمل حديث رسول الله ﷺ وروايته– عدم وصول غير حديث رسول الله ﷺ إلى الأمة باعتباره وحيا حتى لا يتعبد الناس ربهم بغير الوحي كذا ينبغي أن يكون رائد الباحثين في الدراسات النقدية الحديثية هذه الغاية، كما أن هذه القواعد يجب أن تطبق على كل منقول عن رسول الله ﷺ من خلال كتب الرواية باعتبار أن أصحابها غير معصومين من الخطأ والزلل وليس لأحد قدسية خاصة تمنع الغير من نقده.

إن الاختلاف الحاصل في الحكم على الرواة والأسانيد –تجريحاً وتعديلاً وقبولاً ورداً– من قبل علمائنا يعطينا قدرة كبيرة على تحمل الاختلاف المتوقع في الحكم على

[60] البخاري، **الجامع الصحيح** ، كتاب الحج (1601)، وأبو داود، **السنن** ، كتاب المناسك (2027).

متن الحديث في ظل متغيرات ومستجدات جعلتنا نقف متسائلين لا متشككين أومشككين، وإذا استجاز البعض في هذا الزمان لنفسه أن يصحح أحاديث ويرد أخرى–من قبل رواة أسانيدها– بعد مرور عدة قرون على إطلاق الصحة والضعف على تلك الأحاديث مناقشا البخاري ومسلما والترمذي والنسائي وابن حبان وابن خزيمة والحاكم والخطيب والعراقي والهيثمي وابن حجر والسيوطي والمناوي...، فإنه لا يستجيز أن يرد الحديث من قبل النظر في متنه، وهذا لعمري خطل ما بعده خطل، وضرب للعقلية المسلمة التي تجر لأن تؤمن ببعض وتكفر ببعض، وإذا حق لنا هذا فأنا أضع بين أيدي علمائنا وطلبة العلم مجموعة من التساؤلات حول بعض الأحاديث، أرجو أن يتسع الصدر لهذه التساؤلات وهي:

أخرج الإمام مسلم عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّه ﷺ انْتُهِيَ به إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنْ الْأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ به مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا قَالَ: "إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى" قَالَ: فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ: فَأُعْطِيَ رَسُولُ ﷺ ثَلَاثًا؛ أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا الْمُقْحِمَاتُ".[61]

فأين الإسراء الحادث في مكة –وقد أنزل قرآنا في سورة مكية– من خواتيم سورة البقرة والمتفق على أنها مدينة بل خواتيمها من آخر ما نزل؟ وأين فرض الصلاة من خواتيم سورة البقرة؟!.

أدري أن بعض العلماء ذهب إلى تعدد الإسراء والمعراج وأنه وقع في مكة والمدينة[62]، إلا أن هذا التأويل ما هو إلا هروب من تناقض الأحاديث الواردة في المسألة.

---

[61] مسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب الإيمان (173)

[62] انظر: ابن كثير، عماد الدين، **البداية والنهاية**، تحقيق د. أحمد ملحم ورفاقه، بيروت: دار الكتب العلمية، 1985م، (3/112-1169).

حديث آخر: عن أبي هُريرة عن رسول اللَّه ﷺ قال: "لَوْلَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْبُثْ الطَّعَامُ وَلَمْ يَخْنَزْ اللَّحْمُ، وَلَوْلَا حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا الدَّهْرَ"[63]، ففساد الطعام وخنازة اللحم ما هي إلا من الخصائص التي خلقها في هذه الأشياء، فهل الأطعمة قبل وجود بني إسرائيل لم تكن تفسد؟ وهل اللحم لم يكن يخنز قبل ذلك؟ وأما الخيانة فإليكم ما قاله ابن حجر: "فيه إشارة إلى ما وقع من حواء في تزيينها لآدم الأكل من الشجرة حتى وقع في ذلك، فمعنى خيانتها أنها قبلت ما زين لها إبليس حتى زينته لآدم، ولما كانت هي أم بنات آدم أشبهها بالولادة ونزع العرق فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها بالفعل أو بالقول، وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش حاشا وكلا، ولكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة وحسنت ذلك لآدم عد ذلك خيانة له، وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها".[64]

أليس هذا مناقض لما جاء به القرآن الكريم من أن آدم وحواء كلاهما يتحمل مسؤولية الخروج من الجنة، بل آيات القرآن الكريم تركز على أن آدم هو صاحب المسؤولية الأول في هذا الشأن، وأن ما ذكر من تأويلات متهافتة يتفق مع وجهات نظر اليهود والنصارى حول مسؤولية الخروج من الجنة؟!.

حديث ثالث: أخرج الحافظ عبدالرزاق عن عائشة قالت: "كان نساء بني إسرائيل يتخذن أرجلاً من خشب يتشرفن للرجال في المساجد فحرم الله عليهن المساجد وسلطت عليهن الحيضة"، وعن ابن مسعود قال: "كان الرجال والنساء في بني إسرائيل يصلون جميعا، فكانت المرأة لها الخليل تلبس القالبين تطول بهما لخليلها فألقي عليهن الحيض، فكان ابن مسعود يقول: أخروهن حيث أخرهن الله"[65]، قال ابن حجر: "إسناد صحيح،.. وهذا وأن كان موقوفاً فحكمه حكم الرفع لأنه لا يقال بالرأي."[66]

---

[63] مسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب الرضاع (1471)، والبخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب أحاديث الأنبياء (3330)، وأحمد، **المسند** (304/3).

[64] ابن حجر، **فتح الباري** (368/6).

[65] الصنعاني، عبد الرزاق بن همام، **المصنف**، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: المكتب الإسلامي، 1983م، ط2، (149/3).

[66] ابن حجر، **فتح الباري** (350/2).

ونحن نتساءل هنا ألا يناقض هذا المحسوس من واقعنا أن الحيض أمر فطري خلقه الله تعالى في النساء من أجل الإنجاب والولد؟ وألا يناقض هذا ما ورد عن رسول الله ﷺ[67] من أن الحيض قد كتبه الله تعالى على بنات آدم كلهن؟ فكيف يصبح عقوبة؟ وهذه العقوبة تشمل بنات آدم كلهن؟ فإذا قامت نساء بني إسرائيل بهذا الفعل فما ذنب نساء العالمين؟ وما المقصود من إلقاء الحيض عليهن هل لتبعد عن المسجد أياماً؟ فما بال بقية أيام الطهر؟.

وانظروا -بالله عليكم- كيف أزيل التعارض بين ما روي عن النبي ﷺ من أن الحيض مكتوب على بنات آدم وبين ما روي عن عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما! قال ابن حجر: "قال الداودي: ليس بينهما مخالفة فإن نساء بني إسرائيل من بنات آدم، فعلى هذا فقوله بنات آدم عام أريد به الخصوص، قلت: ويمكن أن يجمع بينهما مع القول بالتعميم بأن الذي أرسل على نساء بني إسرائيل طول مكثه بهن عقوبة لهن لا ابتداء وجوده"[68]، قلت: قوله عام أريد الخصوص أي أن ما قاله النبي ﷺ بأن الحيض مكتوب على بنات آدم هو عام مخصوص ببنات بني إسرائيل؟! وأما التأويل الثاني فهل في حديث عائشة وابن مسعود ما يدل على طول فترة الحيض أو قصرها أم أنه نص على أن تسليط الحيض وابتدائه كان ببنات بني إسرائيل؟!.

حديث رابع: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إنَّ اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ أَذِنَ لي أَنْ أحدِّثَ عنْ دِيْكٍ قد مَرَقَتْ رِجْلاه الأرضَ وعُنُقُه مُثْنِيةٌ تَحْتَ العَرْشِ، وهو يقول: سُبْحَانَكَ، مَا أَعْظَمَكَ رَبَّنَا! فرد عليه: مَا يَعْلَمُ ذَلِكَ مَنْ حَلَفَ بِي كَاذِباً"،[69] فهل يكتفى بتصحيح سند هذا الحديث دون النظر إلى متنه وما فيه من ركاكة واضحة في ألفاظه ومعانيه؟ وانظروا إلى قول ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى: "من علامات

---

[67] انظر البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الحيض (294).

[68] ابن حجر، **فتح الباري** (400/1).

[69] الطبراني، سليمان بن أحمد، **المعجم الأوسط**، تحقيق طارق عوض الله، وعبد المحسن إبراهيم، القاهرة: دار الحرمين، 1415هـ، (220/7)، والحاكم، محمد بن عبد الله، **المستدرك على الصحيحين**، بيروت، دار المعرفة، (297/4)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، محمد بن ناصر، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، بيروت: المكتب الإسلامي، 1985م، ط4، (231/1).

الحديث الموضوع سماجة الحديث وكونه مما يسخر منه كحديث: "إن لله ديكا عنقه مطوية تحت العرش ورجلاه في التخوم.."[70]

حديث خامس: عن عُرْوَة عَنْ عَائشَةَ رَضيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدئَ به رَسُولُ اللَّه ﷺ منْ الْوَحْي الرُّؤْيَا الصَّادقَةُ في النَّوْم...، ثُمَّ انْطَلَقَتْ به خَديجَةُ حَتَّى أَتَتْ به وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَل –وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَديجَةَ أَخُو أَبيهَا وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ في الْجَاهليَّة وَكَانَ يَكْتُبُ الْكتَابَ الْعَرَبيَّ فَيَكْتُبُ بالْعَرَبيَّة منْ الْإنْجيل مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ شَيْخًا كَبيرًا قَدْ عَميَ– فَقَالَتْ لَهُ خَديجَةُ: أَيْ ابْنَ عَمِّ! اسْمَعْ منْ ابْن أَخيكَ. فَقَالَ وَرَقَةُ: ابْنَ أَخي! مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ النَّبيُّ ﷺ مَا رَأَى. فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذي أُنْزلَ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَني فيهَا جَذَعًا أَكُونُ حَيًّا حينَ يُخْرجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: أَوَمُخْرجيَّ هُمْ؟ فَقَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْت رَجُلٌ قَطُّ بمثْل مَا جئْتَ به إلَّا عُوديَ، وَإنْ يُدْركْني يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى حَزنَ النَّبيُّ ﷺ فيمَا بَلَغَنَا حُزْنًا غَدَا منْهُ مرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى منْ رُءُوس شَوَاهق الْجبَال، فَكُلَّمَا أَوْفَى بذرْوَة جَبَل لكَيْ يُلْقيَ منْهُ نَفْسَهُ تَبَدَّى لَهُ جبْريلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إنَّكَ رَسُولُ اللَّه حَقًّا. فَيَسْكُنُ لذَلكَ جَأْشُهُ وَتَقرُّ نَفْسُهُ فَيَرْجعُ، فَإذَا طَالَتْ عَلَيْه فَتْرَةُ الْوَحْي غَدَا لمثْل ذَلكَ، فَإذَا أَوْفَى بذرْوَة جَبَلٍ تَبَدَّى لَهُ جبْريلُ فَقَالَ لَهُ مثْلَ ذَلكَ".[71]

وهنا لا بد من طرح بعض التساؤلات: كيف يرجع النبي ﷺ في أمر النبوة والاطمئنان إليها إلى رجل من النصارى أو حتى علمائهم؟ أليس هذا متفق مع مقولة قريش في أن معلم النبي ﷺ بشر، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـــذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (النحل:103)؟! وهل الحالة التي تحل بالنبي أي نبي تدفعه إلى الطيش ومحاولة الانتحار والتردي من فوق رؤوس الجبال؟ وهل يترك النبي بعد أن ينبأ فترة قد تصل إلى ثلاث سنوات على رأي بعضهم[72] دون أن يخبر بمراد الله تعالى؟ ولننظر إلى ما سطره بعض علماء الحديث في الرد على هذه

---

[70] ابن القيم، محمد بن أبي بكر، **المنار المنيف في الصحيح والضعيف**، تحقيق محمود مهدي الاستانبولي، ص (64).

[71] البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب التعبير (6982)، وأحمد، **المسند** (233/6).

[72] انظر: ابن حجر، **فتح الباري** (27/1).

التساؤلات؛ قال ابن حجر: قوله هنا: حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا، القائل فيما بلغنا هو الزهري، ومعنى الكلام أن في جملة ما وصل إلينا من خبر رسول الله ﷺ في هذه القصة وهو من بلاغات الزهري وليس موصولاً، وقال الكرماني: هذا هو الظاهر ويحتمل أن يكون بلغه بالإسناد المذكور، ووقع عند ابن مردويه في التفسير من طريق محمد بن كثير عن معمر بإسقاط قوله: "فيما بلغنا"، ولفظه: "فترة حزن النبي ﷺ منها حزناً غدا منه" إلى آخره، فصار كله مدرجا على رواية الزهري وعن عروة عن عائشة، والأول هو المعتمد، قوله فيها "فإذا طالت عليه فترة الوحي" قد يتمسك به من يصحح مرسل الشعبي في أن مدة الفترة كانت سنتين ونصفاً كما نقلته في أول بدء الوحي، ولكن يعارضه ما أخرجه ابن سعد من حديث ابن عباس بنحو هذا البلاغ الذي ذكره الزهري، وقوله: "مكث أياماً بعد مجيء الوحي لا يرى جبريل فحزن حزناً شديداً، حتى كاد يغدو إلى ثبير مرة، وإلى حراء أخرى، يريد أن يلقي نفسه، فبينا هو كذلك عامدا لبعض تلك الجبال إذ سمع صوتاً فوقف فزعاً، ثم رفع رأسه، فإذا جبريل على كرسي بين السماء والأرض متربعاً يقول: يا محمد! أنت رسول الله حقاً، وأنا جبريل، فانصرف وقد أقر الله عينه وانبسط جأشه ثم تتابع الوحي"، فيستفاد من هذه الرواية تسمية بعض الجبال التي أبهمت في رواية الزهري وتقليل مدة الفترة والله أعلم..، قال الإسماعيلي: موه بعض الطاعنين على المحدثين فقال: كيف يجوز للنبي أن يرتاب في نبوته حتى يرجع إلى ورقة ويشكو لخديجة ما يخشاه؟ وحتى يوفى بذروة جبل ليلقي منها نفسه على ما جاء في رواية معمر؟ قال: ولئن جاز أن يرتاب مع معاينة النازل عليه من ربه فكيف ينكر على من ارتاب فيما جاءه به مع عدم المعاينة؟ قال: والجواب أن عادة الله جرت بأن الأمر الجليل إذا قضى بإيصاله إلى الخلق أن يقدمه ترشيح وتأسيس، فكان ما يراه النبي ﷺ من الرؤيا الصادقة ومحبة الخلوة والتعبد من ذلك، فلما فجئه الملك فجئة بغتة أمر خالف العادة والمألوف فنفر طبعه البشرى منه، وهاله ذلك، ولم يتمكن من التأمل في تلك الحال، لأن النبوة لا تزيل طباع البشرية كلها، فلا يتعجب أن يجزع مما لم يألفه وينفر طبعه منه، حتى إذا تدرج عليه وألفه استمر عليه، فلذلك رجع إلى أهله التي ألف تأنيسها له فأعلمها بما وقع له فهونت عليه

خشيته بما عرفته من أخلاقه الكريمة وطريقته الحسنة، فأرادت الاستظهار بمسيرها به إلى ورقة لمعرفتها بصدقه ومعرفته وقراءته الكتب القديمة، فلما سمع كلامه أيقن بالحق واعترف به، ثم كان من مقدمات تأسيس النبوة فترة الوحي ليتدرج فيه ويمرن عليه، فشق عليه فتوره إذ لم يكن خوطب عن الله بعد أنك رسول من الله ومبعوث إلى عباده، فأشفق أن يكون ذلك أمر بدئ به ثم لم يرد استفهامه فحزن لذلك، حتى تدرج على احتمال أعباء النبوة والصبر على ثقل ما يرد عليه فتح الله له من أمره بما فتح،..ثم أشار إلى أن الحكمة في ذكره ﷺ ما اتفق له في هذه القصة أن يكون سببا في انتشار خبره في بطانته ومن يستمع لقوله ويصغى إليه، وطريقا في معرفتهم مباينة من سواه في أحواله لينبهوا على محله، قال: وأما إرادته إلقاء نفسه من رءوس الجبال بعدما نبئ فلضعف قوته عن تحمل ما حمله من أعباء النبوة، وخوفاً مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعا، كما يطلب الرجل الراحة من غم يناله في العاجل بما يكون فيه زواله عنه ولو أفضى إلى إهلاك نفسه عاجلاً، حتى إذا تفكر فيما فيه صبره على ذلك من العقبى المحمودة صبر واستقرت نفسه. قلت: أما الإرادة المذكورة في الزيادة الأولى ففي صريح الخبر أنها كانت حزنا على ما فاته من الأمر الذي بشره به ورقة وأما الإرادة الثانية، بعد أن تبدى له جبريل وقال له: إنك رسول الله حقا فيحتمل ما قاله، والذي يظهر لي أنه بمعنى الذي قبله، وأما المعنى الذي ذكره الإسماعيلي فوقع قبل ذلك في ابتداء مجيء جبريل، ويمكن أن يؤخذ مما أخرجه الطبري من طريق النعمان بن راشد عن ابن شهاب فذكر نحو حديث الباب وفيه "فقال لي: يا محمد! أنت رسول الله حقاً. قال: فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق جبل" أي من علوه"[73].

أردت أن أنقل الكلام بطوله حتى يبين لنا ما فيه من ضعف وتناقض، فذهاب ابن حجر إلى أن التردي كان قبل النبوة هو مناقض لما جاء في حديث ابن عباس الذي نقله أن هذا حدث بعد النبوة وليس قبلها، كما أن الهم مخالف للفعل فالرواية تصور النبي ﷺ وهو قائم بالفعل لا أنه خطر على باله والدليل على ذلك ظهور جبريل له يهدأ من

[73] ابن حجر، **فتح الباري** (360/12).

روعه، أما ذهاب النبي إلى ورقة بن نوفل أما كان حري بهم أن يذكروا ما رواه ابن إسحاق في سيرته بسند صحيح –والذي أعرضوا عن ذكره!– قال: حدثني وهب بن كيسان مولى آل الزبير قال: سمعت عبدالله بن الزبير وهو يقول لعبيد ابن عمير بن قتادة الليثي: حدثنا يا عبيد! كيف كان بدء ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من النبوة حين جاءه جبريل عليه السلام؟ قال: فقال عبيد وأنا حاضر يحدث عبدالله بن الزبير ومن عنده من الناس...، الحديث وفيه ثم قامت –أي خديجة– فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل –وهو ابن عمها، وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل– فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع فقال ورقة بن نوفل: قدوس، قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتيني يا خديجة! لقد جاءه الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له: فليثبت. فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته بقول ورقة بن نوفل، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف صنع كما كان يصنع بدأ بالكعبة فطاف بها، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة، فقال: يا ابن أخي! أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله ﷺ، فقال له ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، وقد جاءك الذي جاء موسى، ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى مترله"[74]، أليست هذه الرواية حري بها أن تحل لنا الإشكال؟!.

وصلى الله وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

[74] ابن هشام، عبد الملك. **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى السقا وزملائه، بيروت: دار الخير، 1992، (191/1).